بلزاك أو نابليون الأدب

حينما بدأ الكاتب النمساوى الكبير استيفان زفايج فى مطالع حياته تفسير الأدب الفرنسى فى النمسا وقع اختياره على بعض آثار بلزاك ، وقدم لها بمقدمة وافية ، واتبع ذلك بكتابة فصول ضافية عن بلزاك ، وكان يريد أن يتوج جهوده الأدبية بكتابة تاريخ حياة بلزاك كتابة مفصلة مستوعبة جديرة بمكانته العالية وقدرته الخارقة ، ودأب فى جمع المواد لها والاحتفال بها ، ولم ينفك عن استطلاع الآفاق الجديدة فى مشارفة تلك الشخصية ، والإحاطة بنواحيها المختلفة .

وجمع طبعات عدة من مؤلفات بلزاك وسجل بها ملاحظاته وتعليقاته حتى أصبح منزله متحفاً لآثار بلزاك وما كتب عنه .

ولما سافر فى صيف سنة ١٩٤٥ إلى أمريكا ، وهى تلك السفرة التى لم يعد منها تركَ هذه المواد التى كد فى تحصيلها ، وأفنى جهداً فى كتابتها خلفه فى أوربا ، وهناك فى مدينة بترو بوليس أتم كتابه القيم عن حياته المسمى « عالم الأمس » وقصة « اللعبة الملكية » وأراد أن يستأنف الكتابة عن بلزاك قبل موته بقليل ، فطلب إلى أصدقائه فى أوروبا أن يوافوه ببعض مذكراته عنه ، ولكن الظرف الذى أرسل إليه رد إلى أوروبا كما هو دون أن يفض غلافه لوفاة المرسل إليه !

والظاهر أن زفايج حاول العودة إلى تناول موضوع حياة بلزاك ، ولكنه رأى أن فهم تلك الشخصية الضخمة فى شتى مواقفها ومختلف ظلالها من وراء

قدرته وهو بعيد عن مستنداته وأضابيره ومذكراته ووثائقه ، وفضلا عن ذلك فقد كان يشعر بأن قواه قد استنفدت ، وأن خاتمته قد اقتربت ، وأنه قد أصبح فى عالم الأمس الذى صوره فأبدع تصويره .

وبرغم ذلك فإن ترجمته لحياة بلزاك التى أشرف على إخراجها صديقة ريشارد فريدنتال مطبوعة بطابعه ، خليقة بعبقريته ، وإن كانت لم تبلغ ما كان يريده لها من التجويد والإبداع والاستيفاء والشمول .

وقد روى لنا فيها قصة هذه الشخصية العجيبة التى بدأ صاحبها حياته الأدبية بقوله « ما بلغه نابليون بسيفه سأبلغه بقلمى » وقد استطاع بعد جهاد شاق يكاد يكون من وراء طاقة البشر أن يحقق قوله ، وينال منتهى أمله .

والأرجح أن غزواته وفتوحه أبعد أثراً وأبقى ذكراً من غزوات نابليون وفتوحه ، وقد خلق بلزاك عالما من عوالم الخيال حافلاً بشخصيات كثيرة منوعة ، مختلفة المنازع ، متباينة السمات .

وقد صور لنا زقايج طفولة بلزاك ونشأته القاسية الحزينة تصويراً بديعاً ووصفها وصفاً دقيقاً .

وقد ورث بلزاك الحيوية الدافقة والبنية الوثيقة والقوة العارمة عن أبيه ، كما ورث عن أمه دقة الإحساس وقوة الشعور .

ومما يسترعى النظر فى علاقته بأمه أنه لم يلق منها عطفاً ولا حنانا ، بل رأى جفوة وشدة ، ولم يستطع زقايج أن يعلل ذلك تعليلا مقبولا .

وقد قال بلزاك فى رسالة له « لم تكن لى أم » وكانت تحاول على الدوام إبعاده عن منزل أبيه وهو فى مرحلة الطفولة وفى حاجة إلى العطف والتشجيع والتوجيه .

وبرغم سماحة نفسه فإنه لم يستطع أن ينسى المعاملة السيئة التى عاملته بها ،

قال عنها لزوجته «إن أمي سبب كل ما أصابني في الحياة من سوء».

وقد وصف طفولته الحزينة وآلامه في روايته «لويس لامبير» وفي حديثه عن شخصية رافائيل في رواية «جلد الأسى»، وقد وجد صعوبة في الخضوع للنظم الصارمة التي كانت متبعة في المدرسة التي ألحقته بها أسرته، ولم يلحظ معلموه ما كان يعتمل في نفسه ويجول بخواطره، وظنوه كسولا غبياً عنيداً بليداً، وكان نصيبه من الضرب والاضطهاد والعقاب أوفى من نصيب غيره، ولم يستطع أحد في المدرسة أن يتبين في هذا التلميذ «الخائب» سمات العبقرية ودلائل التفوق والنبوغ، وآثار القوة الكامنة المدخرة.

وكان متخلفاً في اللاتيني واللغة بوجه خاص، ولم يخطر ببال أحد من أساتذته أن هذا الطالب كان يشرد بفكره إلى عوالم أخرى، وأنه الوحيد بينهم الذي كان يعيش عيشة مزدوجة.

وكان الذي يعينه وهو في الثانية عشرة من عمره على احتمال قسوة الحياة هو القراءة والاطلاع، وكان عالم الكتب يلطف همومه، ويهون آلامه وما يلقى من إهانات.

وكان يلتهم الكتب المختلفة سواء كانت كتباً فلسفية أو علمية أو دينية أو أدبية، وهكذا اختزن عقله حقائق ومعلومات وألوانا من المعرفة كثيرة منوعة. وكان سريع القراءة، قوى التحصيل، عجيب الذاكرة، تستوعب ذاكرته كل ما يقرأ وما يسمع وما يفكر فيه. فلا تغيب عنه شاردة ولا واردة، ولا ينسى صغيرة ولا كبيرة، وكانت ذاكرته قوية في كل ناحية من نواحيها، فهو لا ينسى الأمكنة ولا الأسماء والوجوه، ويتذكر المواقع والمواقف والظلال والألوان.

وترك تلك المدرسة الصارمة النظام في الرابعة عشرة من عمره، وعاد إلى

بيت أبيه ، وألحق بمدرسة فى بورز ليتم تعليمه ، ولما انتقلت الأسرة إلى باريس فى آخر سنة ١٨١٤ ألحق بمدرسة داخلية ، ولم يظهر فى هذه المدرسة تفوقاً ملحوظا ، بل أظهر تخلفا وإخفاقا وإعراضا عن الدراسة .

وحصل على شهادة البكالوريا بعد لأى ، وأخذ يتدرب على أعمال المحاماة ، ولكنه كان كارهاً لتلك المهنة لأنه أراد أن يكون كاتباً مؤلفاً .

وسمع أهله بذلك فانكروا عليه هذا الاتجاه وعنفوه من أجله ، وكان أشدهم تحاملا عليه وزراية به والدته التى عدتها كبيرة من الكبائر أن يفكر ابنها فى أن يصبح مؤلفاً ! .

كانت أسرته تعتقد أن الأدب والكتابة والتأليف لا يمكن أن تمنح ابنها مرتباً منتظماً ، فالأدب نوع من الترف قد ينغمس فيه أمثال الفيكونت شاتوبريان وهو بقصره الجميل فى بريتانى ، أو المسيو لامارتين أو ابن الجنرال هيجو ، ولكن بلزاك ابن الأسرة المتوسطة الحال ليس من حقه أن يكلف بالأدب ويفرغ للتأليف ! .

ومتى أظهر هذا الشاب المزهو استعداداً للتأليف وقابلية للكتابة ؟ لقد كان بالفصل فى مؤخرة الطلبة ، ولم يقرأ له أحد مقالاً قد دبجته يراعته ، ولم تذع له مجلة من المجلات المعروفة أو المغمورة بحثاً أو قصيدة ، فكيف جاءه النبوغ وتنزل عليه وحى البيان ؟

وقد أعلن بلزاك رغبته هذه فى وقت كانت الأسرة قد أخذت تستهدف فيه لأزمة عسراء ، فقد كان أبوه ممن يفيدون من الحروب النابليونية ، وجاءت عودة البوربون إلى الحكم ، ووقفت المعارك فى أوربا ، وقل دخل والد بلزاك ، واضطرت الأسرة إلى أن تترك باريس وتأوى إلى الريف تحريًا للاقتصاد ، وفى إبان هذه الأزمة يريد ابنها أن يصبح مؤلفاً ! خطب فادح ومصيبة كبيرة !

واتفق رأى الأسرة وأصدقائها على رده عن هذا العزم وكبحه عن مطاوعة هذه النزوة العارضة .

ولكن أو نوريه كان قد عقد العزم على ذلك ، وأصر عليه ، وركب رأسه ، وأبى لاستماع إلى النصح ، وأيدته فى موقفه أخته المحبوبة لورالتى راقها أن يصبح أخوها علما من أعلام الأدب ، وقطباً من أقطاب البيان ! أما والدته فكانت ترى فى ذلك ما يحط من قدر الأسرة ، ويهدم مكانتها ، فكيف ترفع رأسها ويزول خجلها حينما يقال إن ابن مدام بلزاك قد أصبح من هؤلاء الذين يكتبون الكتب ، ويتكففون بالعمل فى المجلات ! يجب وضع حد لهذا ، وألا يمكن هذا الأحمق الطائش من الإمعان فى هذا السلوك الشائن ! .

ولكن فى هذا الموقف تجلت قوة إرادة أنوريه الصلبة الجبارة التى لا تلين ولا تنثنى ، والتى لم يكن لها نظير فى أوروبا بأسرها بعد هزيمة نابليون ، فما يريده أونوريه بلزاك هو الحق الذى لا محيد عنه وغيره هو الباطل الذى يجب تجنبه ! ومتى اعتزم أمراً فإن فى استطاعته التغلب على العقبات مهما كانت ، فلا الدموع أو البسمات ولا الإغراءات أو الشفاعات تستطيع أن تحمله على تغيير خطته والنكول عما أراده .

ولقد انتوى أن يصبح كاتباً كبيراً لا محامياً شهيراً ، وسيشهد العالم أنه قد حقق بغيته وعرف رسالته ، ولقد صمم على أن يجرب حظه فى عالم التأليف ، وليس من حق أحد أن يسأله عن الطريقة التى سيتبعها فى القيام بهذه التجربة لأن هذا كان فى نظره من أخص شؤونه التى يجب أن تترك له حرية التصرف فى تناولها وعلى الأسرة أن تمده بمبلغ يسير من المال يمكنه من ذلك ، وقطع على نفسه عهداً بألا تتجاوز المدة التى يعتمد فيها على مساعدة أسرته عامين ، فإذا لم

يشتهر ويشق طريقه ويصبح من الكتاب البارزين فإنه سيعود إلى مكتب المحاماة .

وقبلت الأسرة هذا الشرط ، وأمدته بالقليل من المال ، وهكذا تغلبت إرادة أو نوريه بلزاك فى أول معركة حاسمة من معارك حياته الحافلة بالمعارك والمغامرات .

وكانت والدته تعتقد أنه سيثوب إلى رشده ، وتنجلى عنه هذه الغيابة ، فصحبته إلى باريس ، واستأجرت له حجرة ضيقة قذرة مظلمة ليضيق بها وينفر منها ويعود إلى عش الأسرة فى الريف الجميل .

وكانت والدته تحاول أن تلين من حدة إرادته وتنال من قوة عزمه ، ولكن خياله القوى كان يخلق من هذا الضيق سعة ، ويخرج من هذا البؤس نعيما ومتعة .

وأعد بلزاك الأقلام والمداد ، ولم يبق سوى شىء واحد لا يخلو من الأهمية وهو ماذا يكتب ؟ وأى موضوع يتناول ؟ .

ولم يكن يدرى بعد هل هو فيلسوف أو شاعر أو عالم أو كاتب مسرحيات أو مؤلف قصص وروايات ! كان يشعر بقوة تدب فى نفسه ، ولكن أين يوجه هذه القوة ؟ كانت هذه هى المشكلة !

وكان يرى أن عليه أن يخرج للعالم شيئا يمكنه من الاعتماد على نفسه والاستقلال عن أسرته ، فأخذ يغوص فى الكتب ليستخرج موضوعاً ، وأمضى شهراً وهو يبحث وينقب ويتحسس طريقه .

وأرجأ الكتابة فى المسائل الفلسفية لأنها تستلزم بحثاً طويلاً شاقاً ولا تدر ربحاً سريعا . وكان يعتقد من ناحية أخرى أن قوته لا تسعفه فى التأليف الروائى وأستقر رأيه فى النهاية على أن يكتب مسرحية على نمط تمثيليات شلر وشيني

والفيبرى ، وأخذ يبحث عن موضوع لهذه المسرحية ، واجتهد فى أن ينتهى من كتابة هذه المسرحية قبل أن تعود إليه والدته وتسأله هذا السؤال المحرج الخطير وهو « كيف أمضيت وقتك ؟ » .

وأقبل على التأليف بحماسة قليلة النظير ، وأكب على العمل ليلاً ونهاراً ، ولم يكن يملك ما يرفه عن نفسه من عناء العمل ، وكان فقيراً زرى الملابس معذباً محروماً فى المدينة العظيمة الحافلة بألوان المتع والمسرات ، وفى خلال ذلك كان يعرض له ذلك الشك المؤلم الذى يعرفه الكتاب والشعراء فيسائل نفسه « هل أنا من أصحاب المواهب ؟ وهل أوتيت البيان والقدرة على الكتابة والتأليف ؟ » .

وأتم مأساة كروميل ، وحملها إلى أهله فى الريف ، وأعجبت الأسرة بهذه الباكورة الأدبية ، وأرسلتها إلى أحد الأساتذة المدرسين ليبدى فيها رأيه ويعرضها على محك النقد ، وأصدر الأستاذ حكمه بعد قراءتها ، وكان مضمونه أن المسرحية غير موفقة ، وأن من الخير لكاتبها أن يستغل وقته فى كتابة المآسى أو الملهيات ، وأنه يصح أن يشتغل بالأدب إلى جانب عمل آخر ! .

وكان هذا هو أشد ما يخشاه بلزاك ، لأنه كان يحس أن التوفيق فى التأليف يقتضى الانقطاع له ، وكانت مدة التعاقد بينه وبين أسرته لم تنته بعد ، فليجرب حظه مرة أخرى ، وليحاول من جديد ، واستأنف الجهاد فى سبيل التأليف والاستقلال والحرية والمجد والشهرة .

وأخذ يفكر فى شىء يسوق إليه النجاح السريع . وأدار الطرف فيما حوله فوجد أن القصة هى التى تؤدى إلى هذا النجاح السريع المطلوب ، وقد كانت أوروبا وهى فى غمرة الحروب النابليونية قد أرهقت أعصابها واستثير خيالها فهى ليست فى حاجة إلى التسلى بعالم القصة . ولكن السلام قد استقر ، وهدأت الحياة ، وأصبحت عادية مألوفة ، فعادت الرغبة إلى الاستمتاع بعالم القصة

الخيالى ومتابعة مصاير أبطالها وراجت الروايات التاريخية ، وغزت فرسان السير ولترسكوت أوروبا بسيوفهم العتيقة الطراز ودروعهم اللامعة ، فصمم بلزاك على أن يكتب رواية تاريخية مجاراة لهذه النزعة السائدة ، ورغبة فى الاستفادة من هذه الفرصة السانحة ، وكتب قصة فالترن ، وكان نصيبها من الإخفاق كنصيب مسرحية كروميل بالرغم من أنه ملأها بالوقعات والمحابس والجنود المأجورة والنبلاء الأسرى وأعمال البطولة وأفاعيل القسوة .

وأتبعها بقصة أخرى خانه كذلك فيها التوفيق . وأنذره أبوه بأنه قد آن الأوان ليضع حداً لهذا الإخفاق المتوالى والإعراض عن هذا الهراء الذى يسميه تأليفاً ويبدأ بناء مستقبله من جديد ، وقد احتمل بلزاك أقصى ضروب الحرمان ، وبذل أقصى ما يستطيع من جهد ليعتمد على نفسه ، ويصبح فى غير حاجة إلى مساعدة أسرته . ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح . فلن ينقذه من هذا المأزق سوى معجزة ، وكان بلزاك ممن يؤمنون بالمعجزات ، وكان مصدر هذا الإيمان بالمعجزات فرط إحساسه بالقوة الهائلة الرهيبة الدفينة فى نفسه .

وقد استطاع بالجهد المتواصل والدؤوب المستمر أن يظفر ببغيته ، ويحقق استقلاله ، وينال المجد الأدبى ، ويظفر بالخلود ، وأخرج فى مدى عشرين عاما أكثر من سبعين قصة كبيرة يكاد ينعقد الإجماع على أنها جميعها من أحسن طرائف الفن وأبقى ذخائر الأدب .

وكان إذا عكف على تأليف قصة لا يترفق بنفسه فى العمل ، فينهض من فراشه فى منتصف الليل والناس نيام ، ويوالى الكتابة حتى الساعة الثامنة مستعينا على استحثاث خواطره باحتساء القهوة السوداء ، ويمضى يومه فى المراجعة والتصويب .

وقد صور لنا زقايج فى كتابه القيم حياة بلزاك فى جميع أدوارها وشتى

مراحلها وأرانا أن طريقه إلى المجد والشهرة لم يكن مفروشا بالورود ممهداً خالياً من العقبات ، وأنه تجرع مرات آلام الخيبة والإخفاق ، وذاق ذل الهزيمة والعجز قبل أن ينتصر ويوفق ، ويمكن أن نستخلص من هذه الحياة الحافلة بروائع الإنتاج أن الإرادة القوية وحدها لا تكفى إلا إذا حدد الإنسان هدفه ، وحصر جهده .

ولقد كانت عظمة بلزاك كامنة فى قوة إرادته الجبارة ، وكانت هذه الإرادة الفذة القادرة تزيد النجاح ، وتبل المجد والنفوذ فى أى ميدان من ميادين النشاط الإنسانى ، ويرى زفايج أن بلزاك إن لم يكن قد أصبح كاتباً عظيماً فإنه كان لابد أن يصير قائداً من طراز نابليون أو سياسيًّا من نوع تاليران أو خطيباً على شاكلة ميرابو ، أى أن وصوله إلى القمة كان حتماً مقضيًّا وقدراً لابد منه .

ولزاك كسائر الكتاب والشعراء العظام والفلاسفة الأعلام مشكلة يتناولها كل جيل من الأجيال ، ويجرب فى فهمها واستيطان دوافعها وتحليل فنها نصيبه من الفهم والدراية والشعور والإحساس ، ومن رأيى أن زفايج قد استطاع بحسه المرهف وبصيرته النافذة وقدرته على الاستقصاء أن يعيننا فى كتابه الممتع على فهم بلزاك وتأمل مسارب نفسه ، وغوامض وعيه ، وظاهر من بين سطور الكتاب وثناياه أن زفايج لم يكن مفتوناً بشخصية بلزاك ولا مغالياً فى الإعجاب بها ، ولكنه مع ذلك قد شملها بعطفه وأسبغ عليها من فنه ما قربها إلى أفهامنا وقلوبنا .